

■ الإمام أبو الحسن الندوي.. سفير العجم لدى العرب



بقلم: د.د.

يوسف القرضاوي

عنهم أن لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة بالحق، ظاهرة عليه، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.

وهو بلا شك من الأمة التي نوه بها القرآن، وأثنى عليها في قوله عز وجل ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ الأعراف:

وممن قال فيهم سيدنا علي كرم الله وجهه: لا تخلوا الأرض من قائم لله بالحجة.

ويستطيع ذوو الأقلام أن يجدوا أكثر من مجال للكتابة عن الشيخ الندوي رحمه الله.

وقد كتبت عن الشيخ الجليل عندما قامت «رابطة الأدب الإسلامي» - التي شرفت برئاسته - بعقد ندوة خاصة لتكريمه، والتي كانت في مدينة استنبول منذ عدة سنوات، ودعي إليها عدد من رجال الأدب والفكر من العالم العربي والإسلامي، ليشاركوا في تكريم الشيخ رحمة الله عليه. ولقد كانت هذه فرصة لاكتب عن ركائز الفكر الدعوي للشيخ الندوي، ولقد حصرتها في عشرين ركيزة، أحصيتها، وتحدثت عن كل منها بإجمال. وتحدثت بتفصيل عن إحداها فقط وهي ركيزة «إعلاء الوحي على العقل».

كما كتبت عن الشيخ بمناسبة محاضراته التي ألقاها في دولة قطر بدعوة من وزارة الأوقاف فيها، والتي تحدث فيها الشيخ عن «مهمة الأمة الإسلامية في العالم» ونشرت كلمتي مع محاضراته وكذلك كتبت عن الشيخ كلمة رثاء عند وفاته رضي الله عنه، وفاء ببعض حقه.

واليوم أراد إخوة في «مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية» بإنجلترا، والذي يرأس الشيخ مجلس أمنائه، وسعدت بعضويتي فيه، فقد كان فرصة للقائه بين الحين والحين، لأرطب جفاف قلبي بفيض ربانيتها، ورفق

الشيخ الإمام أبو الحسن علي الحسن الندوي: شخصية ثرية متعددة المواهب، متنوعة العطاء، فهو إمام من أئمة الدعوة، وعلم من أعلام الإصلاح، ونجم من نجوم الهداية، وجبل من جبال العلم، ورائد من رواد الربانية، وقائد من قادة الإسلام.

كان الشيخ أحد الرجال «الربانيين» الذين يدلك على الله منطقهم، ويذكرك بالآخرة سلوكهم، وبزهد في الدنيا حالهم، ولقد قال العرب: لسان الحال أبلغ من لسان المقال. وقال علماء السلوك: حال رجل في ألف رجل أبلغ تأثيراً من مقال ألف رجل في رجل.

ولقد قال السلف: الرباني هو الذي يعمل ويعمل ويعلم. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ آل عمران.



كان من «معلمي الناس الخير» الذي تصلي عليهم الملائكة في السموات، وتصلي عليهم مخلوقات الله في الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، كما ورد في الحديث.

كان كما قال الإمام أحمد عن الإمام الشافعي: كالشمس للدنيا، والعافية للناس.

إنه من القلائل الذين يجود بهم القدر على الناس ما بين فترة وأخرى، لطفاً من الله بهم، ورحمة من الله لهم، ليحيوا ما مات من القلوب، ويجددوا ما اندرس من الدين.

وهو من «الخلف العدول» الذين حملوا علم النبوة، وميراث الرسالة المحمدية، لينفوا عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، كما روي في بعض الأحاديث.

وهو - لا ريب - من أعلام الطائفة المنصورية التي صحت بها الأحاديث، واستفاضت عن عدد من الصحابة رضي الله

ندوات.. في تأيين الشيخ



روحانيته، أرادوا أن يقيموا ندوة تكريمية للشيخ رحمه الله، واختاروا لي أن أتحدث عن «صلة الشيخ بالعالم العربي» وإنها لصلة وثيقة وعميقة جدية بالتنويه.

■ موقع الشيخ لدى العالم العربي:

كان الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوي - رحمة الله عليه - سفير الشعب المسلم بالهند، بل سفير الشعوب المسلمة في بلاد العجم كلها، لدى البلاد العربية: علمائها ودعاتها ومفكرها المسلمين، ومجامعها العلمية والدعوية الإسلامية ومؤسساتها الثقافية والدينية.

■ الاعترافات التي دفعها فقد الشيخ لدى العرب:

وقد أجمع العلماء واتفقت المجامع والمؤسسات والمجالس العلمية والدعوية المختلفة على اعتماد سفارة الشيخ أبي الحسن وتمثيله لمسلمي الهند خاصة والعجم عامة، وذلك لاعتبارات مهمة، نجملها فيما يلي:

١- أرومته العربية:

أولاً: أرومته العربية، ونسب الحسني الشريف، فلا شك أنه عربي قرشي هاشمي حسني، وإن نشأ في الهند وعاش فيها. وهذا ولا شك قربه إلى العرب، فهو في الحقيقة واحد منهم.

٢- رسوخه في العربية:

وثانياً: تضلعه في اللغة العربية، وتشبعه بعلمها وأدبها منذ صباه، وقراءته لكتبها، وإطلاعه على مصادرها، وحفظه الكثير من شعرها ونثرها، واستحضاره لها، وحسن استشهاده بها. كأنما نشأ في أرض العرب، وتعلم في معاهدها، فكان يخطب ويحاضر بالعربية الفصحى، ويكتب

بها مؤلفاته، من كتب ورسائل، فهو يكتبها في الأصل باللغة العربية، ثم تنقل إلى الأوردية، إلا مآندر على خلاف ما كان عليه الأستاذ الكبير أبو الأعلى المودودي، فقد كان يكتب بالأوردية ثم تنقل كتبه إلى العربية. وهذا ما جعل الشيخ أبا الحسن يهتم بالأدب العربي ويؤلف فيه كتاب للناشئين منذ شبابه، كما يهتم بتأسيس رابطة للأدب العربي الإسلامي في شيخوخته، وظل رئيساً لهذه الرابطة حتى أدركته الوفاة.

٣- ثقافته الواسعة:

وثالثاً: ثقافته الواسعة التي جمعت بين القديم والحديث، وضمنت إلى الثقافة العربية الإسلامية الشرقية. الثقافية الغربية الحديثة، وساعده على ذلك معرفته بعدد من اللغات التي كانت نوافذه إلى الثقافات المختلفة، فقد كان يعرف العربية والأردية والهندية والفارسية والإنجليزية. وقد تجلى أثر هذه الثقافة الموسوعية في إنتاجه وعطاءه الفكري.

٤- كتبه الأصيلة المعبرة عن ثقافته ووجهته:

ورابعاً: وصول كتبه ورسائله إلى العرب، فعرفه الناس بها قبل أن يعرفوه شخصياً، فوجدوا في هذه الكتب الفهم السليم للإسلام، والفهم السليم للتاريخ، والفهم السليم للواقع. مع حماسة وغيرة على الإسلام وعلى أمته عامة، وعلى العرب منهم بصفة خاصة، كما يبدو ذلك واضحاً في أول كتاب عرفه به العالم العربي، وهو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»

٥- عنايته بالعرب وهمومهم ومشكلاتهم:

وخامساً: عنايته بالعرب وبمشكلاتهم المختلفة وبنهضتهم، وهويتهم، باعتبارهم عصبية الإسلام، وأهل الرسول الكريم، وأحفاد الصحابة الميامين. والمفروض فيهم أن يقودوا الركب الإسلامي، وأن يأخذوا بزمام القافلة الإسلامية. وهذا ما نراه في كتب وسائل شتى مثل: من العالم إلى جزيرة العرب، ومن جزيرة العرب إلى العالم. و«اسمعياته الموقظة التي خاطب بها عدداً من البلاد العربية مثل «اسمعي يا مصر» «اسمعي يا سورية» «اسمعي يا زهرة الصحراء» يعني الكويت «اسمعوها مني صريحة أيها العرب» إلى رسائل كثيرة أخرى. أما قصة فلسطين، فكان لها جزء كبير في تفكيره وفي شعوره، كما كان لها في محاضراته

ورسائله وكتبه مكان أي مكان، وهذا اهتمام قديم ظاهر وبارز في تراث الشيخ كله. وكان من رآيه أنها تحتاج إلى شخصية قيادية إيمانية تنفخ في الأمة من روحها، مثلما فعل صلاح الدين.

٦- وسطيته واعتداله:

وسادساً: وسطيته الفكرية، واعتداله في تناول القضايا الخلافية والمسائل الشائكة، فهو يعرض لها برفق، ويتناولها بحكمة، تناول من يحرس على أن يبنى ولا يهدم، وأن يجمع ولا يفرق، تناول من يبحث عن القواسم المشتركة لا عن نقاط التمايز والاختلاف، تناول الطبيب المسك بالمبضع، لا القصاب المسك بالساطور. وهكذا رأينا تناوله لقضية التصوف في كتابة «ربانية لا رهبانية» وللشخصيات التي لها دور في التجديد والإصلاح في تاريخنا الإسلامي، في كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» بأجزائه المتعددة ومنها عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن الإمام السرهندي، والإمام الدهلوي.

٧- مؤسسته التي ينتمي لها:

وسابعاً: إنتماؤه إلى مدرسة ومؤسسة علمية وفكرية متميزة، هي «ندوة العلماء» التي عفت بمؤسسيها من العلماء الكبار المجددين، من أمثال العلامة شلبية النعماني، والسيد سليمان الندوي، وهذه المؤسسة قد جمعت بين علوم السلف ومعارف الخلف، وبين صفاء العقيدة، وروحانية التصوف، وبين العلم الواسع والإيمان الراسخ، وهي ترحب بكل جديد صالح، كما تستفيد من كل قديم نافع، وتأخذ من التراث ما صفاً، وتدع ما كدر. وتؤمن بالثبات على الأهداف والكليات، وبالتطور في الوسائل والآليات. لهذا أحبها المسلمون المخلصون العاملون لإصلاح الأمة وتجديد الدين.

٨- شخصيته المحببة:

وثامناً: شخصيته المحببة لكل من عرفه، واقترب منه، ناهيك بمن خالطه وعاشه، فهو رجل راسخ الإيمان، قوي اليقين، شديد الخشية لربه، عامر القلب بحبه، زاهد في الدنيا، مشغول بالآخرة، حسن الخلق، عف اللسان، غيور على دينه، حامل لهموم أمته، غائب عن حظ نفسه، كأنما استل من القرن الأول استلالاً، ليوضع في زمننا هذا، هو بقية من السلف وهدية إلى الخلف، وهو رباني الأمة بحق. فهو يعيش في هذه الدنيا بقلب أهل الآخرة، ويمشي على

الأرض وعينه ترنو إلى السماء. وهذا ما جعل كثيراً من الناس - وأنا منهم - يتقربون إلى الله تعالى بحبه. كان هيناً ليناً سهلاً سمحاً كريماً سخياً فيه من خلق الحسن السبط - رضي الله عنه - ومن رفقته ولينه وزهده وتواضعه، ما يؤكد نسبه، ويؤيد حسبه، فهو حسني خلقاً وأدباً، كما أنه حسني أصلاً ونسباً.

ومما أذكره هنا من مناقب الشيخ أنه - خصوصاً في مكة المكرمة والمدينة المنورة - كان يترك الفنادق الفخمة - خمسة نجوم - لينزل في بيوت بعض إخوانه أو تلاميذه من الهنود - وهي عادة بيوت متواضعة - لأن هذه البيوت أقرب إلى فطرته وإلى حياته وإلى بساطة معيشته وطبيعته مأكله ومشربه.

٩- إجماع قومه عليه:

وتاسعاً: أن قومه - الذين يعتبر سفيرا عنهم - مجمعون عليه - لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان، كما يقولون. اجتمع عليه السلفيون والمتصوفون، والمذهبيون واللامذهبيون، كما اجتمع عليه المثقفون بالثقافة الإسلامية التقليدية، والمثقفون بالثقافات الحديثة، وكان كلمة إجماع عندهم، أحبه الجميع لاعتقادهم بصدقه وإخلاصه وتجرده لله، وبعده عن الأغراض الشخصية، والمصالح الذاتية، والعصبية الجاهلية. و لهذا اختاروه رئيساً لكثير من مؤسساتهم، مثل مجلس عموم مسلمي الهند، ومجلس الأحوال الشخصية للمسلمين، وغيرها.

بل أقول: إن غير المسلمين من قومه كانوا يجلوونه ويحترمونه، ويعرفون له قدره، الحكام منهم والمحكومون.

١٠- اختيار الشيخ للمجامع والمجالس المختلفة:

فلا عجب أن رأيناه من أوائل من اختيروا في «المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي» في مكة المكرمة من أول يوم انشئت.

كما اختير في المجلس الاستشاري أو المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ إنشائها.

وكذلك اختير في المجلس الأعلى العالمي للمساجد، التابع لرابطة العالم الإسلامي منذ تأسيسه أيضاً.

وكذلك كان عضواً في «مجلس المجمع الفقهي» المنبثق عن رابطة العالم الإسلامي منذ تأسيسه كذلك وقد سعدت بزمالته فيه.

ندوات.. في تأبين الشيخ



وقد اختير من قديم عضوا في
المجمع العلمي العربي بدمشق.
وكذلك عضوا في مجمع اللغة
العربية بالقاهرة. وفي أكثر من مجمع
علمي.

■ بحاية أنصاله بالعالم العربي ■

وقد بدأت صلة الشيخ بالعالم
العربي، وهو لم يزل في شرح
الشباب. كما ذكر ذلك في كتابه «في
مسيرة الحياة» منذ قام برحلته إلى
الحج.

ومن أبرز رحلاته المبكرة إلى العالم
العربي وأهمها: رحلته إلى مصر سنة
١٩٥١م، والتي التقى فيها بالعلماء
والدعاة والأدباء والمفكرين،
والجماعات الدينية في مصر، وحاضر
في كثير من أنديتها وجامعاتها،
ومدنها وقراها.

التقى بقيادة الإخوان المسلمين
وأصدر في ذلك رسالته «أريد أن
أتحدث إلى الإخوان»، والتقى بسيد
قطب والشيخ الغزالي والشيخ البهي
الخولي والشيخ الشرباصي والدكتور

محمد يوسف موسى، والأستاذ أحمد أمين وغيرهم من
رجال العلم والفكر والأدب من علماء الأزهر، وأساتذة
الجامعات.

ومما أذكره عن هذه الرحلة: أني كنت أول من علم بقدوم
الشيخ إلى القاهرة. علمت بذلك قبل مقدمه بأيام، من بعض
لشباب الهند الذين كانوا يدرسون بالأزهر. قالوا لي:
أتعرف الشيخ أبا الحسن الندوي؟ قلت: أليس هو مؤلف
كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟ قالوا: بلي.
قلت إذن أعرفه. قالوا: إنه على وشك الحضور إلى القاهرة.
قلت لهم: أرجوكم أن تبلغوني بوصوله بمجرد حضوره
لأسعى إلى زيارته. وقد فعلوا. فسارعت إلى زيارته. وكان
يسكن في شقة صغيرة متواضعة في زقاق ضيق متفرع
من شارع الموسكي بحي الأزهر. وقد أنزله بعض المصريين

الأخيار ضيفا في هذه الشقة، لأن الشيخ لا يحب النزول
في الفنادق، وما فيها من صخب ومتعة، لا تلائم حياته
وحاله. وقد رأيت عيشته في شقته هذه - ومعه اثنان من
إخوانه من ندوة العلماء - فكانت غاية في البساطة والقناعة
والزهد.

وقد ألقى الشيخ عددا من المحاضرات في الجامعات
والجمعيات والأندية وغيرها، حضرها جمهور طيب من
الناس

حاض في دار الشبان المسلمين، وفي كلية دار العلوم،
وفي عدد من مدن مصر، منها: المحلة الكبرى التي كنت
أعيش فيها وأخطب فيها. وأصلح بيني وبين رئيس
الجمعية الشرعية في نفس المدينة، كما ذهب إلى بلدة
«نبرو» مركز طلخا، وألقى فيها كلمة طيبة، وطلب من الناس
أن يبيتوا في المسجد، قياما لليل، واستجابة لقول الله
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ الفرقان.

فاستجاب أكثر الحاضرين لدعوته، وباتوا الليل في
المسجد، وبات الشيخ معهم، على طريقة جماعة الدعوة
والتبليغ.

والتقى بمجموعة مختارة من شباب الإخوان في البيت
الذي كنت أسكنه مع إخواني في حي شبرا بالقاهرة، وكان
حريصا على أن يسمع منا عن أخبار الشيخ وعن انطباعاتنا
عنه.

وكانت أيام الشيخ الندوي في مصر مباركة وحافلة
ونافعة، وترتب على هذا أن ظهرت الطبعة الثانية من كتابه
«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» مشتملة على عدد
من المقدمات المعروفة بالشيخ والمزهوة بشخصيته وبفضله،
مثل سيد قطب ومحمد يوسف موسى وأحمد الشرباصي.

وقد ذهب بعد زيارة مصر إلى سوريا، وكان له فيها
أنشطة ولقاءات مع رجال الدعوة والفكر والأدب أيضا.
وخصوصا مع السباعي والزرقا والمبارك والدواليبي.

وقد سجل الشيخ هذا الرحلة وآثارها وثمارها في كتاب
خاص سماه «مذكرات سائح في الشرق العربي»

١٠ - دعوة الشيخ

للمؤتمرات والندوات والمحاضرات:

ولقد دعي الشيخ رحمه الله من أكثر البلاد العربية إلى
المشاركة في مؤتمرات وندوات أو لإلقاء محاضرات في